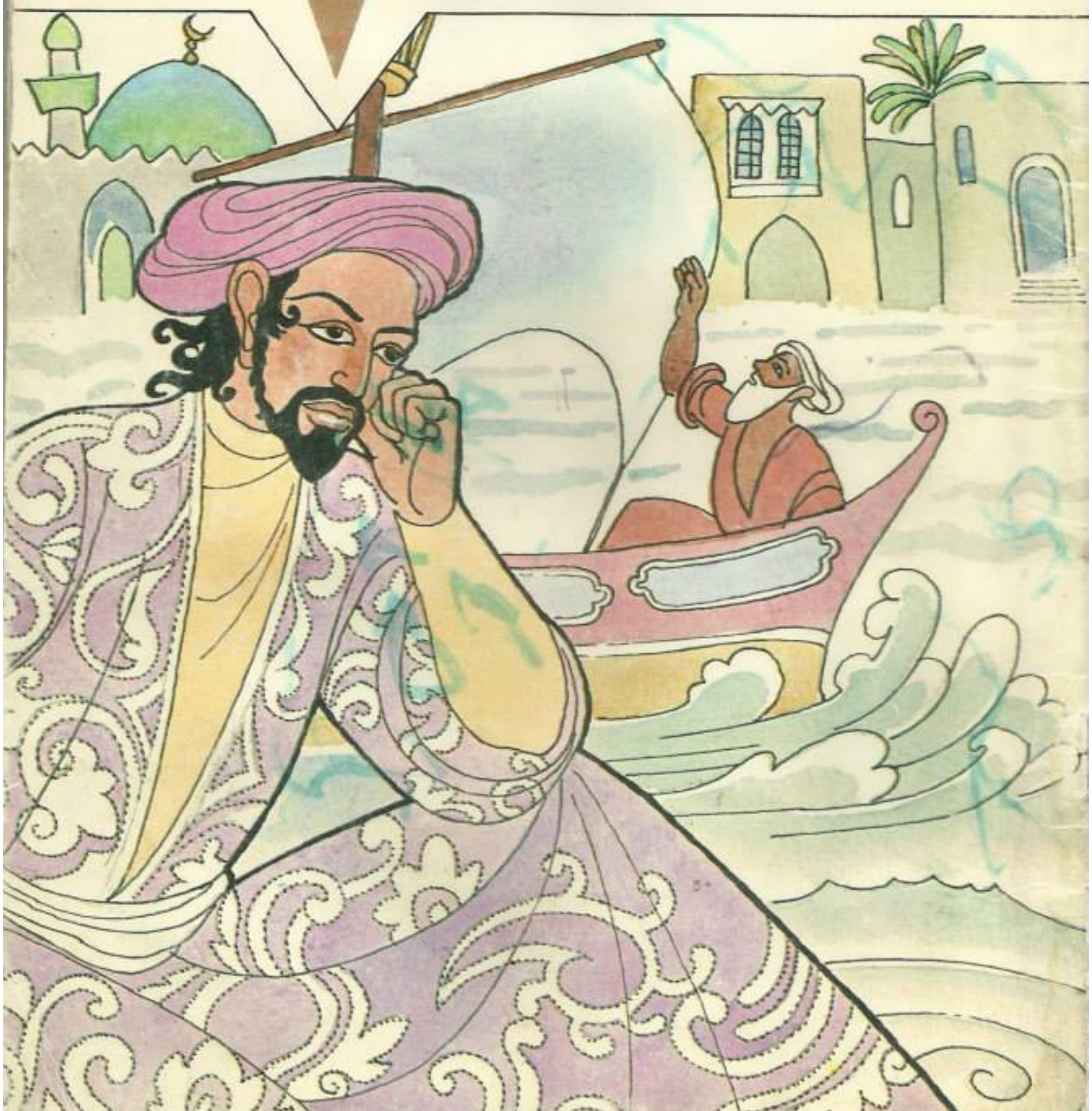
دائرة ثقافة الاطفال

زَورَق في دجلة

٤

حكايات شعبية

مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل



دائرة ثقافة الأطفال

الاسم: كرار حبيب [illegible]

الصف: السادس

الشعبة: هـ

المدرسة: التحالف الابتدائية للبنين

المادة: قصة زورق في دجلة

التوقيع

زَورَق في دجلة

– مكتبة الطفل –
دائرة ثقافة الاطفال
وزارة الثقافة والاعلام
الجمهورية العراقية

حكايات شعبية

٤

زَورَق في دجلة

تأليف : فواز شعّار

رسوم : اديب مكي

تصميم : خليل الواسطي

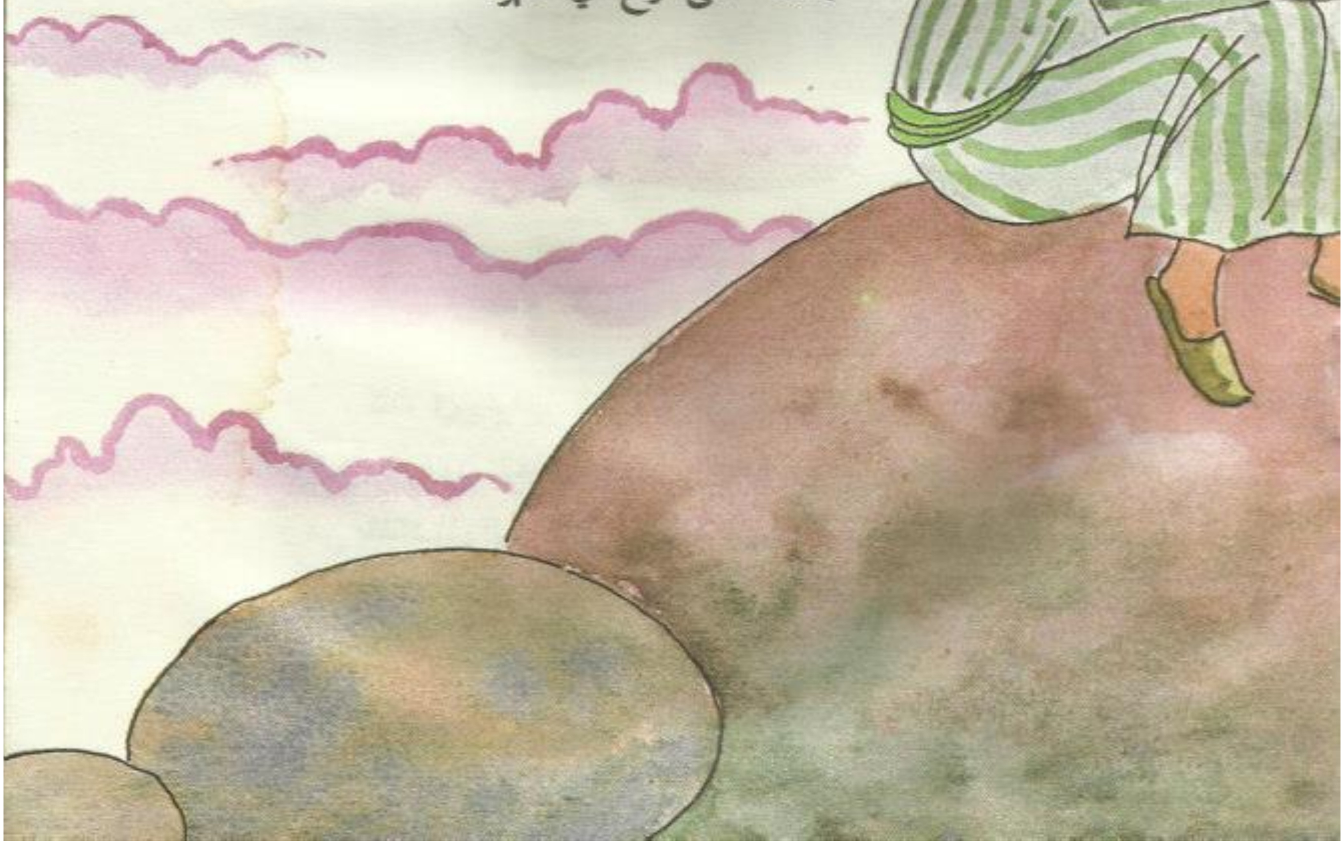


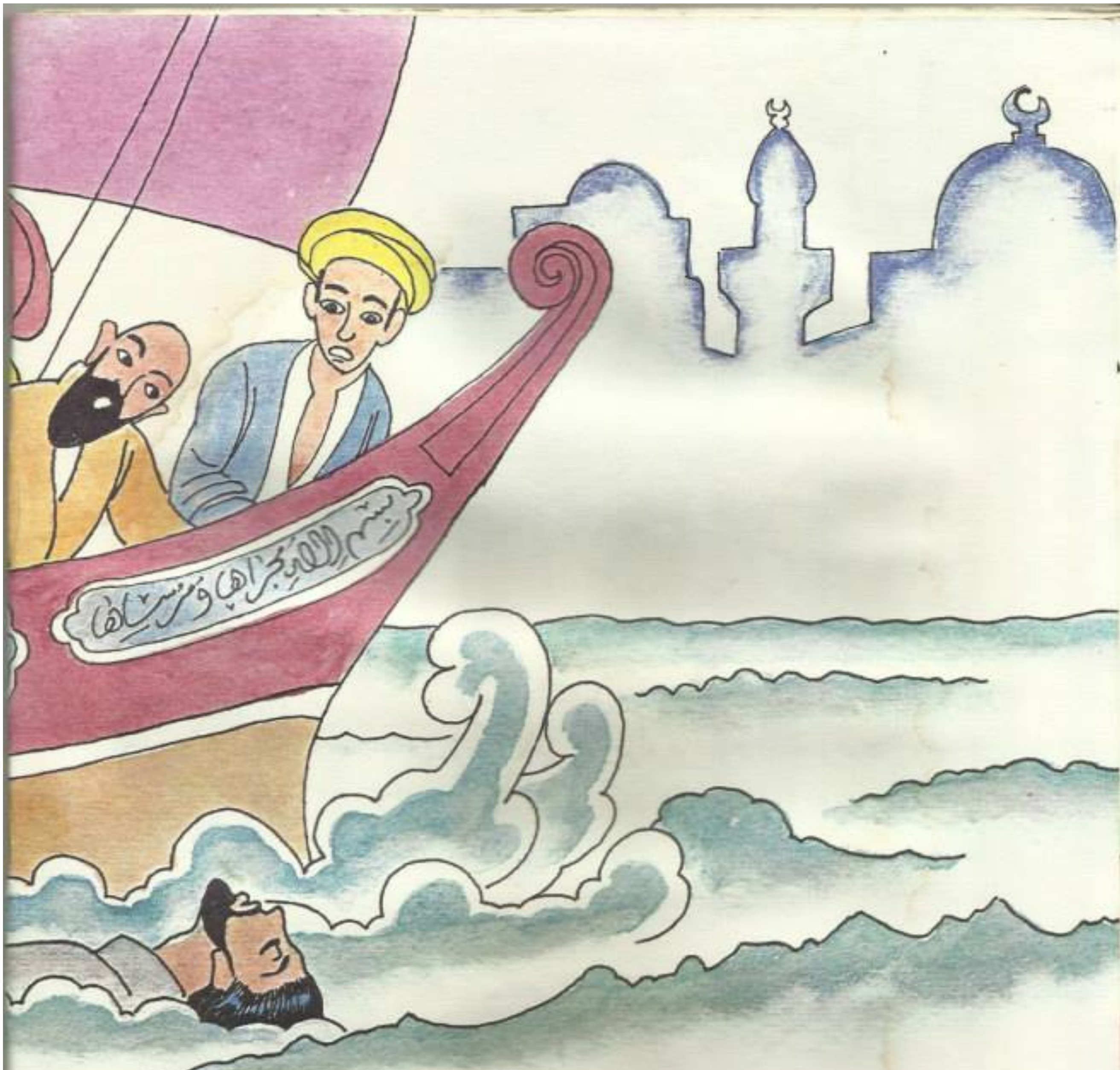




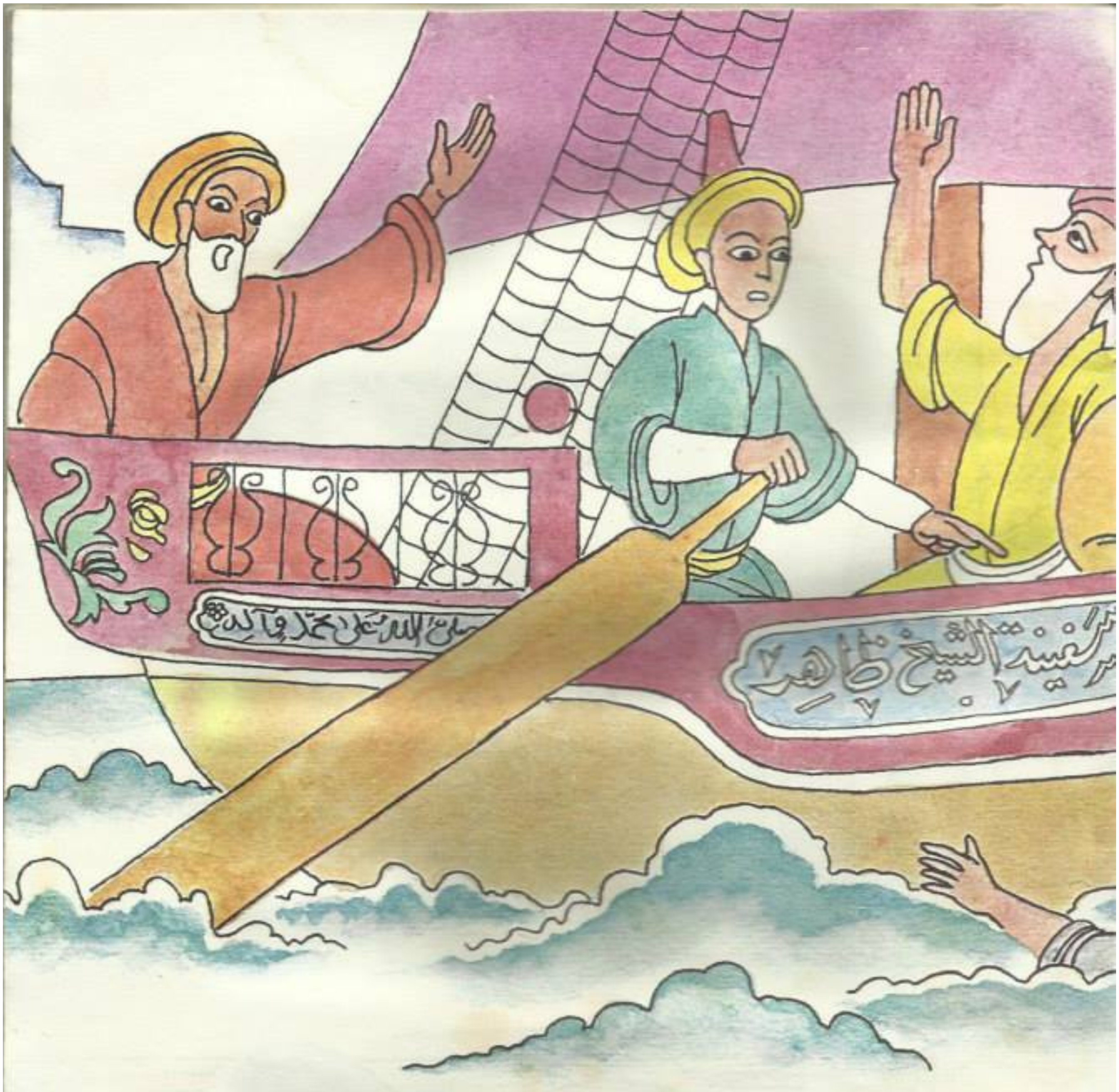
وقفَ «الفضلُ» عند تلّةٍ محاذيةٍ لنهر دِجلةَ ، حزيناً ، مهموماً لا يعي ما حولَه من فَرْطِ هَمِّهِ وحزنِهِ . وفجأة أحسَّ بدوارٍ في رأسه وغَثَيانٍ في حَلْقِهِ ، فزاغَتْ عيناه ، وتراخَتْ قدماه ، وارتمى على حافّةِ التلّةِ مغمىً عليه ، فتدحرج جسمُه حتى وَقَعَ في النهر .







كان فِي عَرْضِ النهر ثُلَّةٌ من البَحّارةِ ، يركبون زورقاً كبيراً ، يغنّون فيه ويهزجُون ، فَرِحينَ بِبَدْءِ رِحلتِهم النهريةِ من بغدادَ إلى البصرةِ فرأى واحدٌ منهم «الفضلَ» وهو يقعُ في



النهرِ ، فأخذ يصيحِ منبّهاً رفاقَه إلى ما رأى .
حينئذ أمَرَ ربّانُ الزورق بحارتَه أن يوجِّهوا دَفَّةَ القيادةِ إلى حيثُ «الفضلُ» لينقذوه من الغَرَقِ .

انتشلَ البَحّارَةُ «الفضلَ» من النهرِ ، وهو فاقدُ الوعْيِ ، وقد امتلأَ جوفُه بالماء ، فعالجوه حيناً حتى أخرجوا الماءَ من بطنه . ولكنه ظلَّ فاقدَ الوعي ، يهذي بكلامٍ غيرِ مفهومٍ ، بينما كانَ الزورقُ مُطلِقاً أشرعتَه باتجاهِ البصرة .

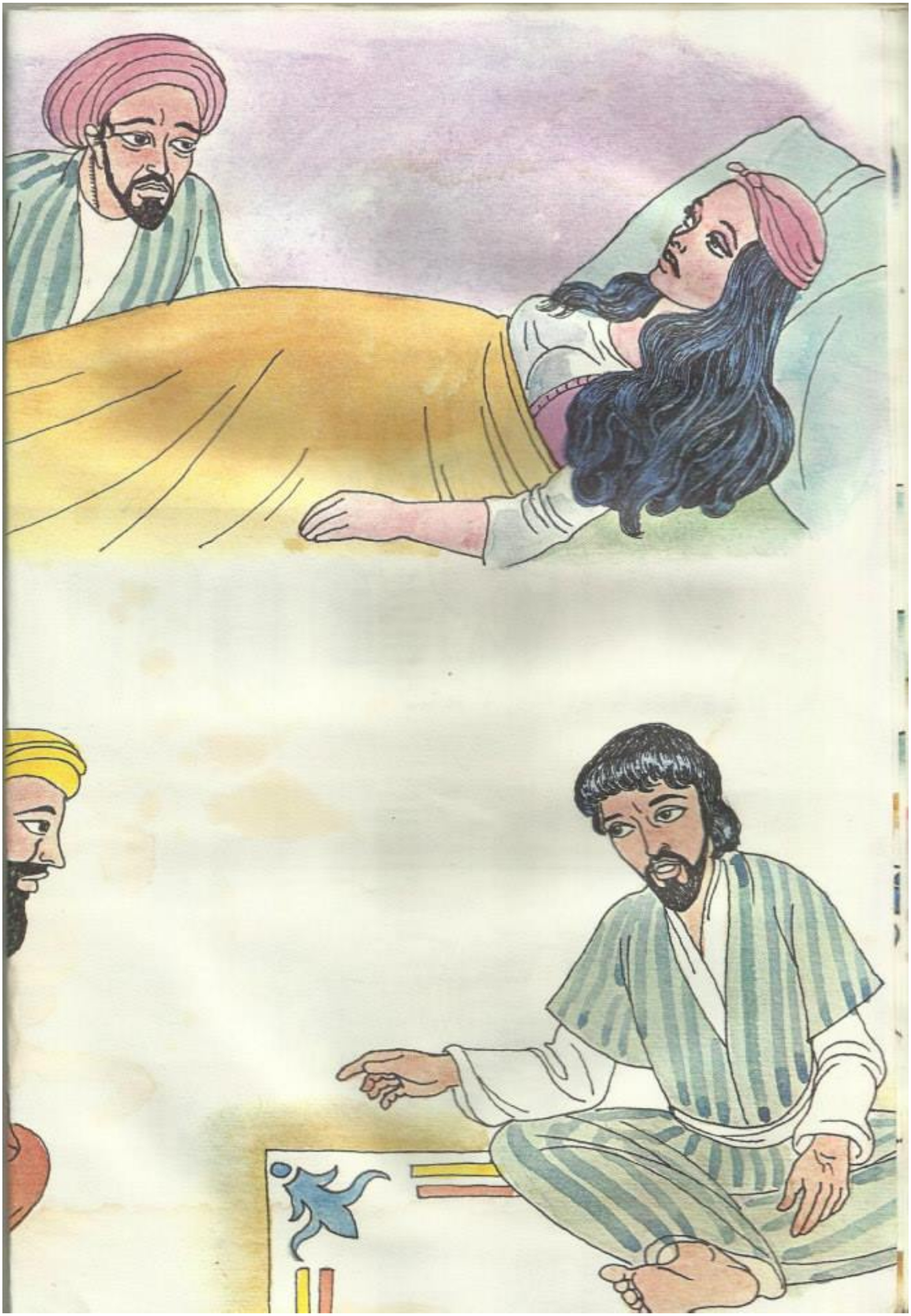
أقبلَ الليلُ ، وأخذَ البحارةُ أماكنَهم حولَ الرُبّان يَسْمُرُونَ ، بينما كان «الفضلُ» راقداً على فراشٍ في زاويةِ الزورق . مُستغرقاً في غيبوبته ، لا يدري من أمرِه شيئاً .

وعندما طَلَعَ الصباحُ ، أفاقَ الفضلُ وقد تَعافَى . فتعجَّب من وجودِهِ في مركبٍ نهري بعيداً عن مدينةِ بغدادَ ، ووجودِ هؤلاءِ البحارةِ الذين لا يعرفُهم .





عَرَفَ الفضلُ ما حدثَ له . وتَمَنّى أن يعودَ إلى بغدادَ بأيةِ وسيلةٍ . ولكنْ هيهاتَ ، فلم يَعُدْ من سبيلٍ إلى عودتِهِ وقد ابتعدَ به الزورقُ عن بغدادَ مسيرةَ يومٍ وليلةٍ . فسلَّمَ أمرَه إلى اللهِ . وأنزوى كاسفَ البالِ محزوناً .



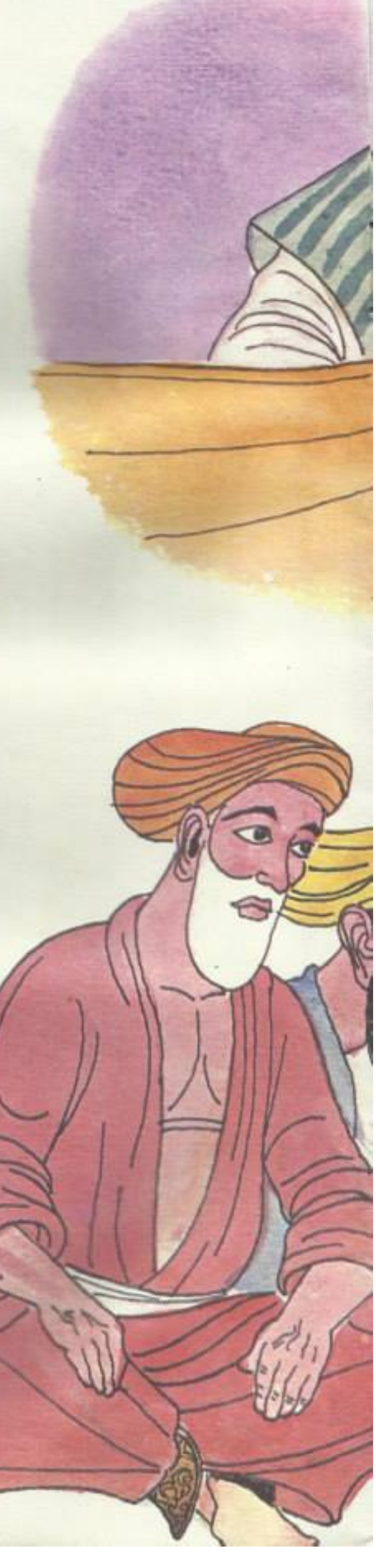
إلا أنَّ البحَّارةَ الطيبينَ ، الذين أنقذوه من الغرقِ ، لم يتركوه مع أحزانِهِ ، بل طلبوا منه ، وألحّوا عليه أن يكاشِفَهم بهمّه . فَحَكَى لهم قصتَه وقال :

– كنتُ أعملُ صيرفيّاً في سوقٍ ببغدادَ ، وكانت حالي حسنةً ، ورزقي موفوراً ، فتزوجْتُ من فتاةٍ طيبةٍ ، وعشنا معاً في سعادة .

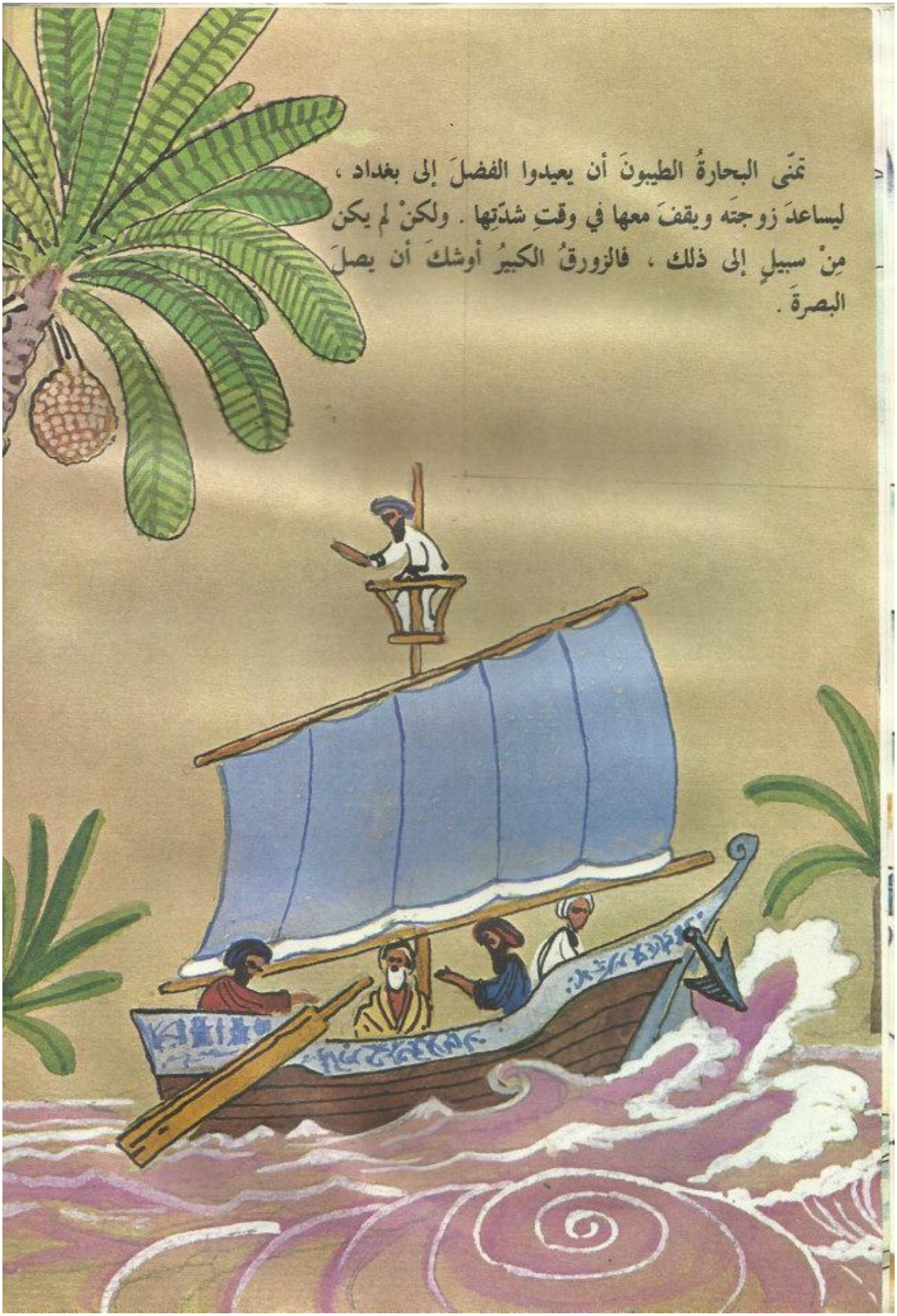
استمرّت حياتُنا راغدةً هنيئةً . إلا أنَّ أصحابَ السوء ، أَغْوَوْني وتدخَّلوا في أعمالي ، فَنَفِدَ مالي ، وساءَتْ حالي ، وَتَنكَّرَ لي الذين أعرفُهم في وقتِ شدتي .

وحَمَلَتْ زوجتي . فلما اقتربَ موعدُ ولادتِها ، طلبتْ مني طعاماً يسدُّ جوعَها . فخرجْتُ ألتمسُ ذلك عندَ البقالينَ فَمنعوني لِكَثْرةِ ما علي لهم من ديون ، فمشَيْتُ حيرانَ حتى وصلتُ تلك التلةَ عندَ دجلةَ . ووقفتُ عندها لا أدري ما أفعلُ .

وبعد ذلك وقعتُ في النهر. والتقطْتموني أنتم ، وحملْتموني في هذا الزورقِ .

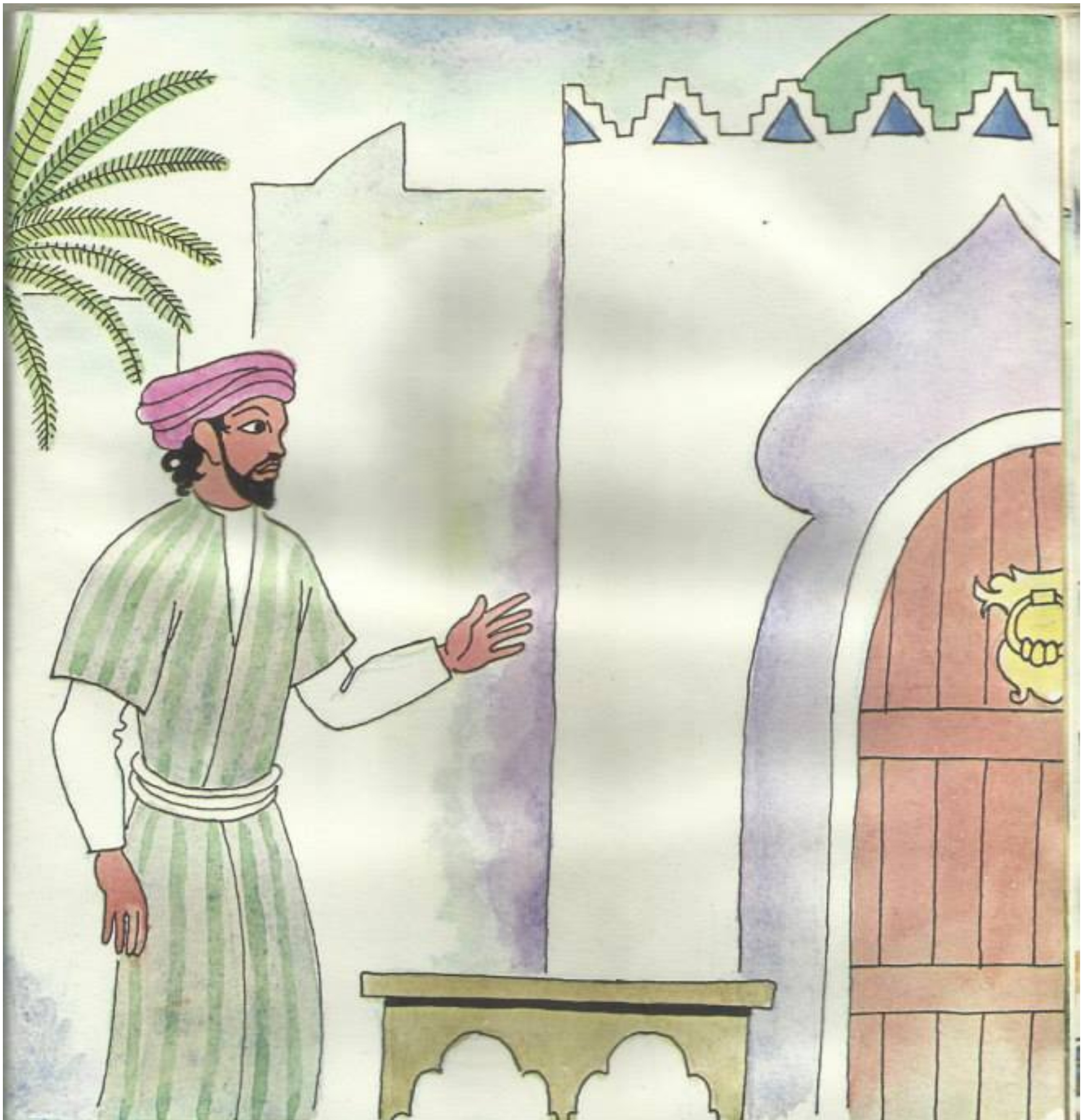


تمنّى البحارةُ الطيبونَ أن يعيدوا الفضلَ إلى بغداد ، ليساعدَ زوجتَه ويقفَ معها في وقتِ شدّتِها . ولكنْ لم يكن مِنْ سبيلٍ إلى ذلك ، فالزورقُ الكبيرُ أوشكَ أن يصلَ البصرةَ .

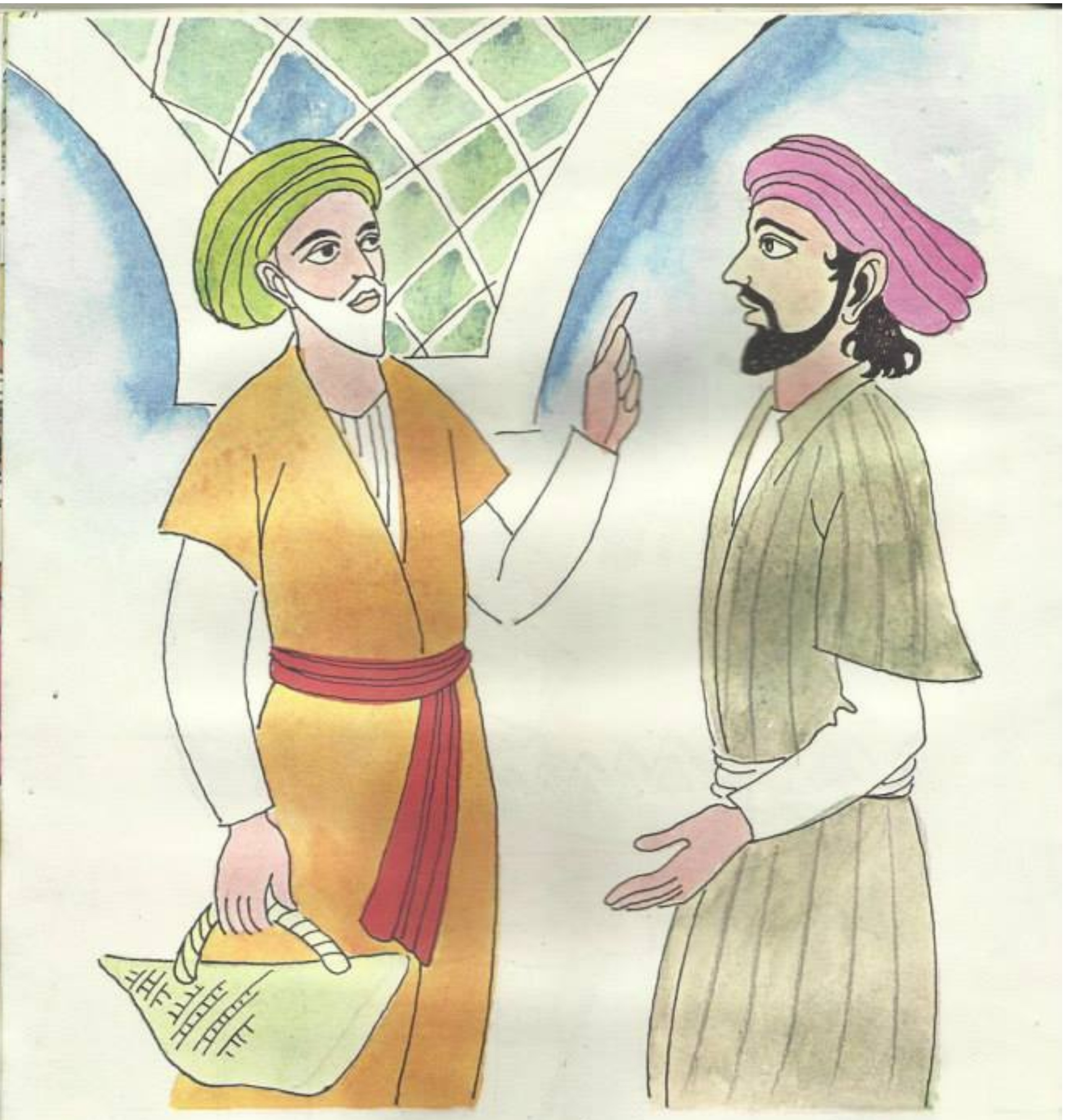


عَمِلَ الفضلُ في البصرة أعمالاً مختلفةً ، لأنه أدرك أن العملَ قَدَرٌ للانسان ، وأنَّ الذي لا يعملُ لا يأكلُ . وما زالَ يَتَنَقَّلُ في الأعمالِ ، حتى استقرَّ عندَ أحدِ التمَّارِينَ ، وصارَ يشتغلُ في جَنْيِ التمرِ وتعبئتِه في السِّلالِ ، ولبثَ على ذلك عدةَ سنواتٍ . فتوفَّرَ لديه مبلغٌ من المالِ ، وعزمَ على العودةِ إلى بغداد .





اقترَبَ الفضلُ من الحيِّ الذي فيه منزِلُه بِبَغدادَ ، لعلّه يقِفُ على خبرٍ عن زوجتِه التي تركها منذُ زمنٍ بعيدٍ . فلما وصلَ ، رأى المنزِلَ وقد تغيَّرتْ واجهتُه لما أُسْبِغَ عليها من تَحْسينٍ ، فالبابُ قد طُلِيَ بدِهانٍ بديعِ اللون ، والجدارُ كُسِيَ بالجِصِّ الابيضِ ، وأُقيمت على جانبَيْ البابِ دكتانِ نظيفتانِ .



أيقن «الفضلُ» أن أُناساً ذوي شأنٍ قد سكنوا البيت ، وأنَّ عليه أن يبحثَ في أحياءَ أُخرى من بغداد عن زوجتِه ، لعلَّه يجدُها ويعوّضها عمّا لاقت من صنوف الحاجة .

إلا أنه بدافعٍ من الفضول ، سألَ أحدَ المارّةِ :

– بيتُ مَنْ هذا يا أخي ؟

فأجابه :

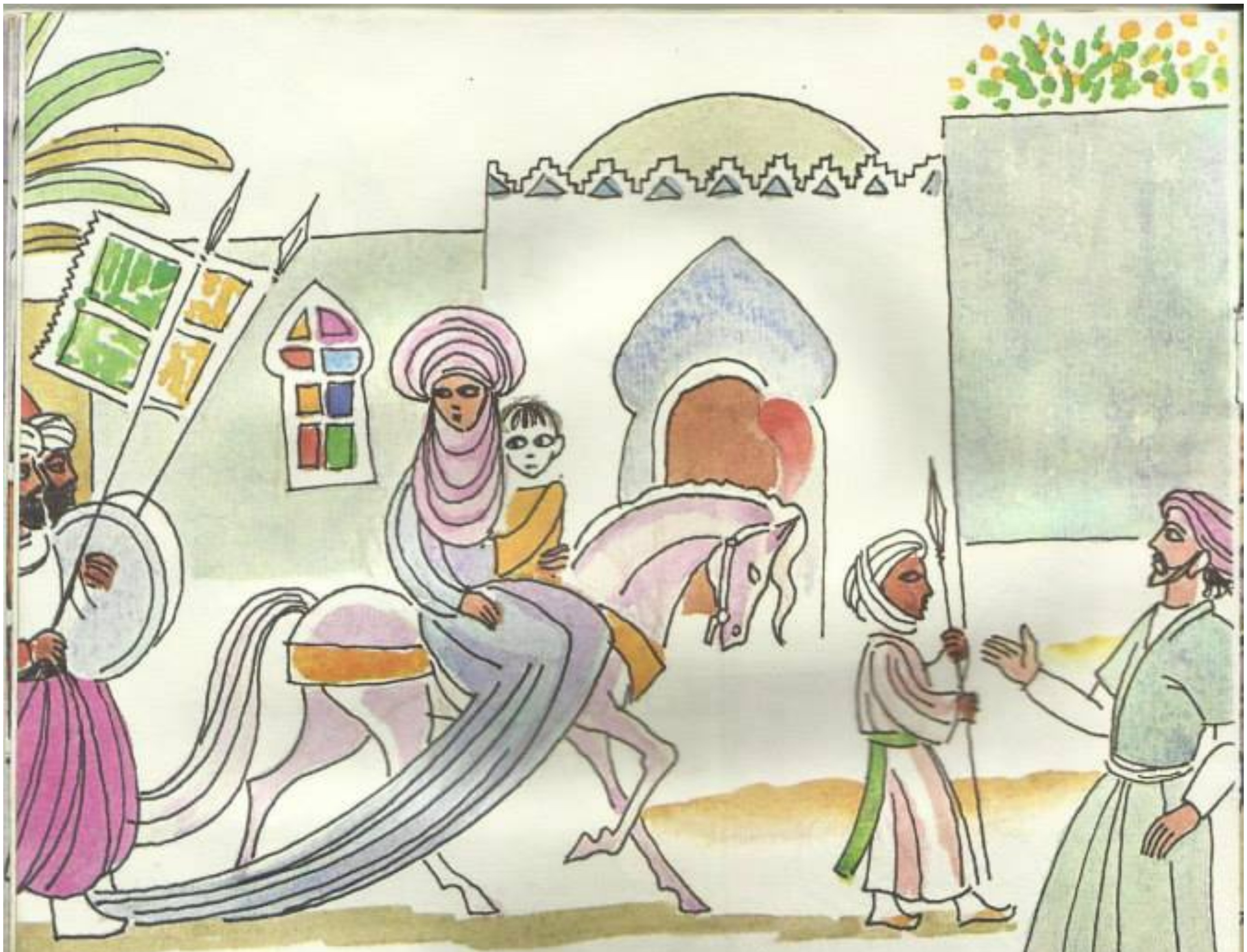
– هذا بيتُ «الفضل» الصيرفي .

دهش «الفضلُ» وكادَ أَنْ لا يُصدِّق .

كيفَ يكونُ هذا البيتُ ما زالَ بيتَه ؟ اقتربَ من أحدِ الباعةِ المجاورين وسألَه ، فأكَّدَ له أنّ هذا المنزَل هو للفضلِ الصيرفيِّ . وعندما سأله أين هو «الفضل» ؟ أجابه :

– لا أحدَ يعرف .

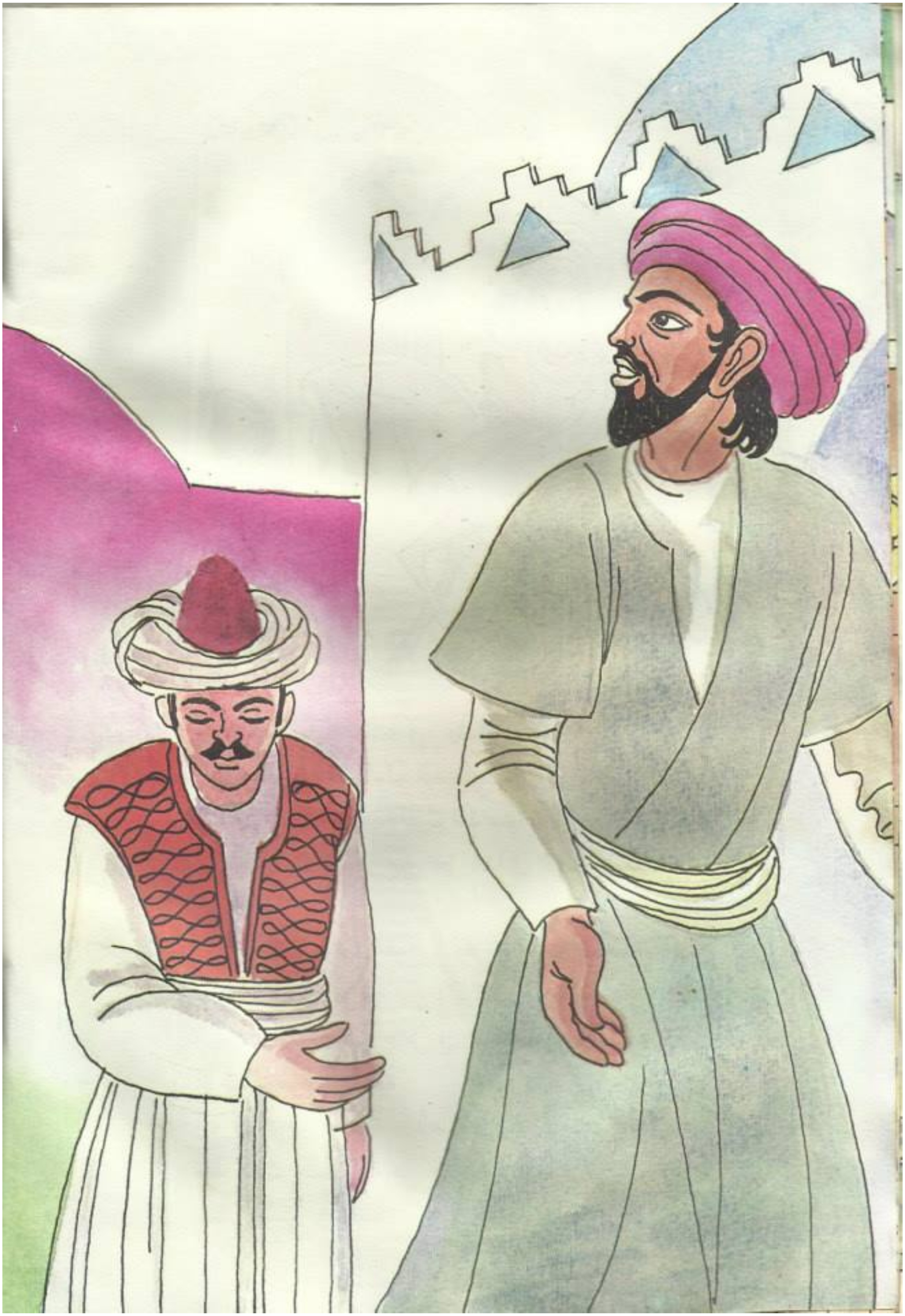




زادت حَيْرَةُ «الفضلِ» وتساءَلَ :
كيف يكون هذا المنزلُ البديعُ ، له ؟
لقد تركَ زوجتَه في هذا المنزلِ منذ سنواتٍ وهو متهدّمٌ ، خالٍ من المتاعِ والأثاثِ ، فَمَنْ فعلَ هذا في غيابه والمنزلُ ما يزال على اسمه ؟

وفجأة ، وصل موكبٌ وقورٌ ، واذا بمَحْمَلٍ حَسَنِ المنظر ، يَحفُّ به الحرّاسُ ، تركب فيه امرأةٌ ذاتُ ثيابٍ جميلة ، وإلى جانبها طفلٌ في السادسةِ من عمره ، مضيءُ الوجه ، موفورُ العافية .

فلما ترجَّلَتِ المرأةُ ، دُهِشَ «الفضلُ» دهشةً عظيمةً ، فقد كانت هذه المرأةُ هي زوجته ، إذنْ ، لا شكَّ في أنَّ هذا الصبيَّ هو ابنُه .



ترقرقَتْ دمعتان في عَينَيْ «الفضل» لتأثُّرِه بما رأى ، وتذكَّر كيفَ تركَ هذه الزوجةَ وهي في أقسى ساعاتِ شدّتِها ، فقيرةً ، متألمةً ، جائعةً ، على وشكِ الولادةِ ، ثم زادَ تأثُّره لِمَا رأى عليها من نعمةٍ ، وما أفاءَ عليها اللهُ من فضل وإعزازٍ ، وأَسِفَ على ما كان من فقره وحاجتِه .

وبينما هو كذلك غارِقٌ في هواجِسِه وأفكارِه ، إذا بحاجِبٍ من حُجّابِ المنزل يقول له :

– سيدي الفضلُ ، أجبْ سيدتي أمَّ الحارثِ .

عَجِبَ «الفضل» من معرفةِ الحاجب اسمَه ، ولكنَّ وجهَه سرعانَ ما تهلّلَ وكساه طيفٌ رقيقٌ من البهجةِ ، لِعِلْمِهِ أنّ اسمَ ولدِه هو «الحارث» فسأل الحاجبَ في لهفةٍ :

– إذن فهذا الصبي الذي دخلَ المنزل مع أمه هو الحارثُ ؟

وأجاب الحاجب :

– نعم يا سيدي «الفضل» انه ابنُك «الحارثُ» وقد لَمَحَتْكَ أمُّه في أثناءِ نزولِها من المَحْمَلِ ، فأمرَتنا بدعوتِك للدخول .



تردّد «الفضل» قبل أن يخطوَ نحوَ منزلِه ، ولمّا دخله عَجِبَ مما فيه من تنسيقٍ ، وأثاثٍ جميلٍ ، فوقف مبهوتاً .

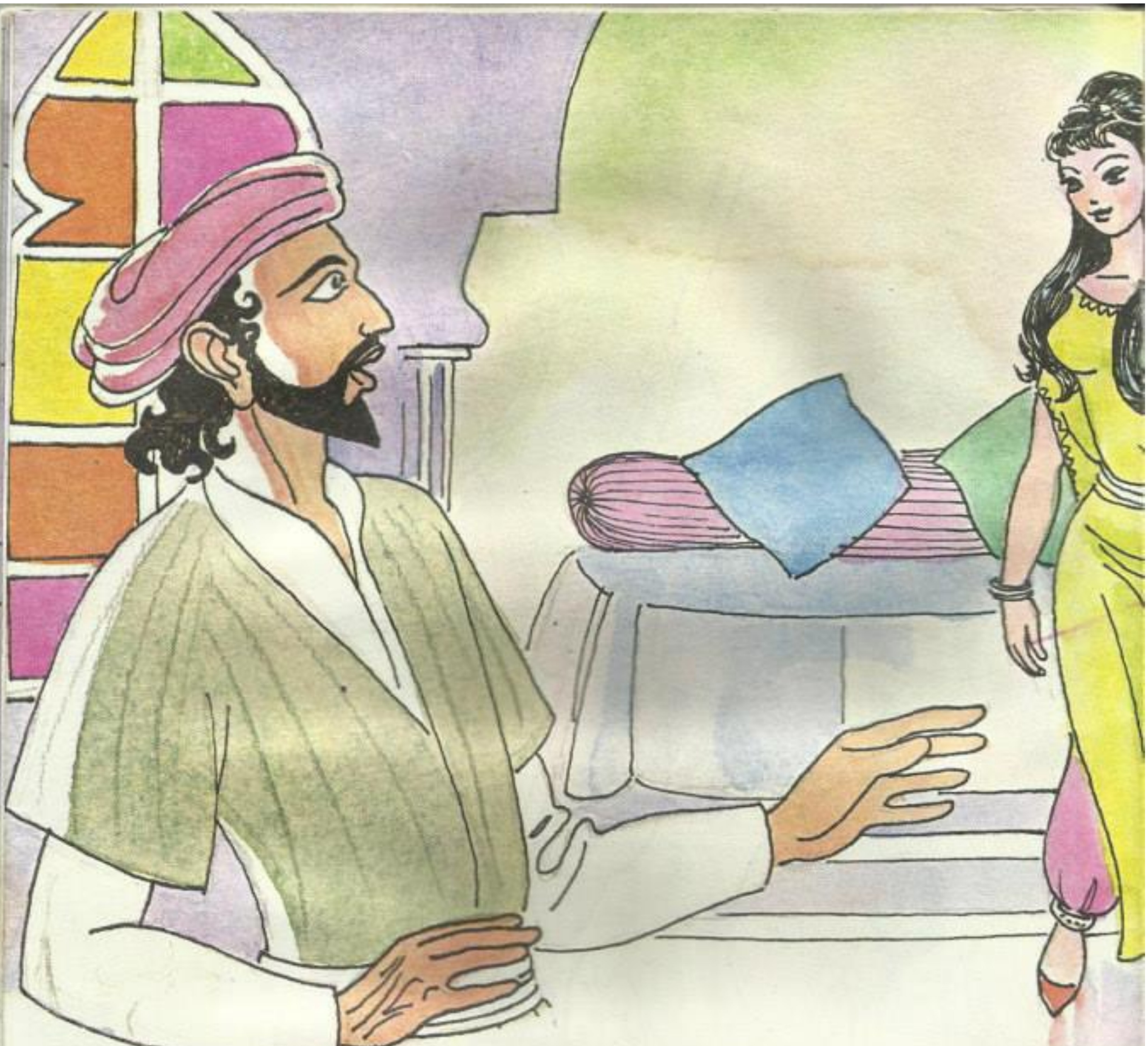
وبينما هو كذلك ، ظهرتْ زوجتُه «أمُّ الحارثِ» ، وقد تهلّلَ وجهُها بنورِ الفرحِ ، ومدتْ ذراعيها مرحّبَةً وهي تقول :

– مرحباً «أبا الحارثِ» ، شرَّفْتَ دارَك ، وأسعدْتَ أهلَكَ .

وقبل أن يُرُدَّ الفضل على تحيةِ زوجتِه ، أقبلَ ابنُه الحارث ، فقالتْ زوجتُه :

– هذا ابنُك يا فضلُ

وفي حنانٍ أبويّ عظيمٍ ، انحنى الفضلُ يعانقُ ولدَه الحارثَ ، وقد امتلأَتْ عيناهُ بدموعِ الرحمةِ والفرحِ .



جلس الزوجانِ الوفيّانِ ، «الفضلُ» و «أمُّ الحارثِ» في إيوانِ البيتِ وقد تهادَتْ فيه أنسامُ بغدادَ الليليةِ المنعشةِ ، حاملةً أريجَ الوردِ ، وعبيرَ الذكرياتِ البعيدةِ .

كان الفضلُ مُتَلَهّفاً لسَمَاعِ ما جرى لزوجتِه في أثناءِ غيابه الطويلِ ، وما سببُ هذا التغييرِ في حالِها . وكانت هي كذلك تريد أن تحكيَ لزوجها كلَّ شيءٍ .

قالت الزوجةُ :

– عندما غادرْتَ البيتَ يا «فضل» منذ ستِّ سنوات ، لتحضر لي الطعامَ أطبقتْ عليَّ آلامُ الولادةِ ، ولم أُطِقْ صبراً واحتمالاً ، فخرَجتْ مني صرخةٌ عاليةٌ استقرّتْ في سَمْعِ امرأةٍ عجوزٍ طيبةٍ كانت تستند إلى جدارِ بيتنا تستريحُ .





أَسرعَتْ إليَّ المرأةُ الطيبةُ ، فلما وَجَدَتْ حالي وما أنا فيه من فقرٍ وألمٍ ، تطوَّعَتْ لمساعدتي حتى وضعتُ ابنَنَا «الحارثَ» ، وأَخذَتْ تعتني بي وبالطفلِ وتُحْضِرُ لي كلَّ يومٍ ما تقدِرُ عليه من طعامٍ وحاجاتٍ .

وفي أحدِ الأيام جاءتِ المرأةُ ، فوجدتْني أبكي ، فأدركَتْ مِقدارَ هَمّي ومبلغَ حاجتي ، فقالت :

– لا تحزَني يا ابنتي ، ولا تقنطي مِنْ رحمةِ اللهِ . لقد سمعتُ هذا اليومَ خبراً يعنيكِ .

قلتُ لها :

– ما سمعتِ ؟

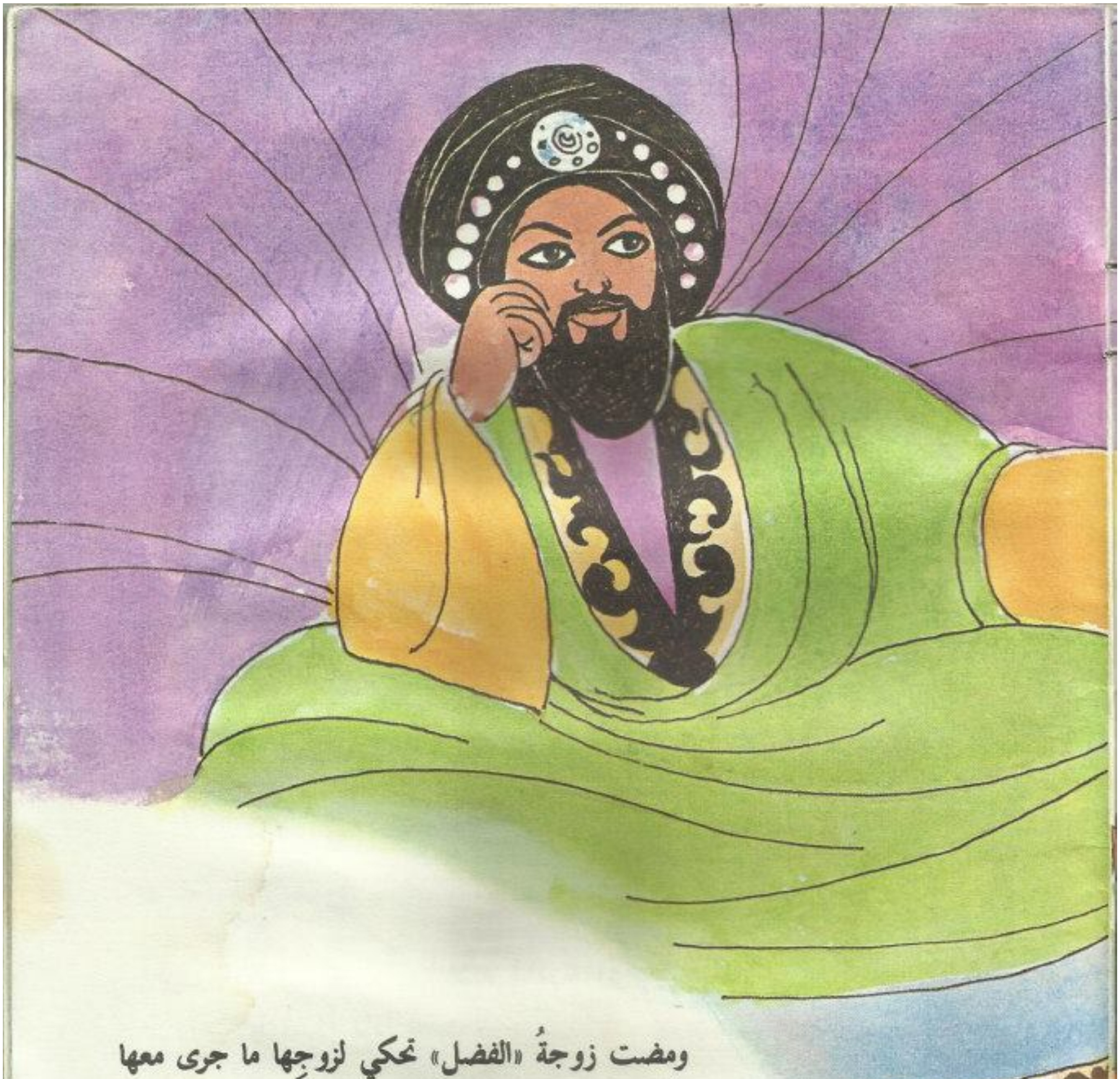
قالت :

– وَلَدَتْ زوجةُ الرشيدِ «مراجلُ» غلاماً اسمُه «عبدُ اللهِ المأمونُ» ، ثم توفّاها اللهُ ، ولم يُقْبِلِ المأمونُ الرضيعُ على أيةِ مُرْضِعٍ أخرى . فأَمَرَ الرشيدُ جنودَه أن يدعوا مَنْ تشاءُ من الوالداتِ إلى منزله ، لعل ابنَه الرضيعَ يُقْبِلُ على ثَدْيِ واحدةٍ منهنَّ .

ومضت زوجةُ «الفضلِ» تقولُ :

شَجَّعَتْنِي تلك المرأةُ الطيبةُ أن أجربَ حظي مع ابنِ الخليفةِ المأمونِ ، فذهبتُ إلى منزلِ الرشيدِ ، وعرضت نفسي فَرَضَعَ مني المأمونُ ، وكان فرحُ الخليفةِ الرشيدِ بذلك فرحاً عظيماً ، فأتاحَ لي فرصةً للعملِ والكسبِ ، مُرْضِعاً لابنِهِ .





ومضت زوجةُ «الفضل» تحكي لزوجِها ما جرى معها فقالتْ :

– ثم عِشْتُ في منزلِ الرشيد مدةَ الرِضّاعِ ، ولما كَبِرَ المأمونُ ، صرتُ أتردَّدُ عليه بين الحِينِ والحِينِ ، والرشيدُ ما يزال يسوقُ إليَّ الخيراتِ والأَنْعُمَ ، فأنا أمُّ المأمونِ بالرضاعِ ، وولدُكَ الحارثُ أخٌ للمأمونِ بالرّضاعِ ، فالحمدُ لله الذي أعانني وعوّضَني خيراً ، بما هيأَ لي من فرصةٍ للعملِ الشريف .



أطرق «الفضل» متفكّراً متأملاً ، فبادرتْه زوجتُه تقول :

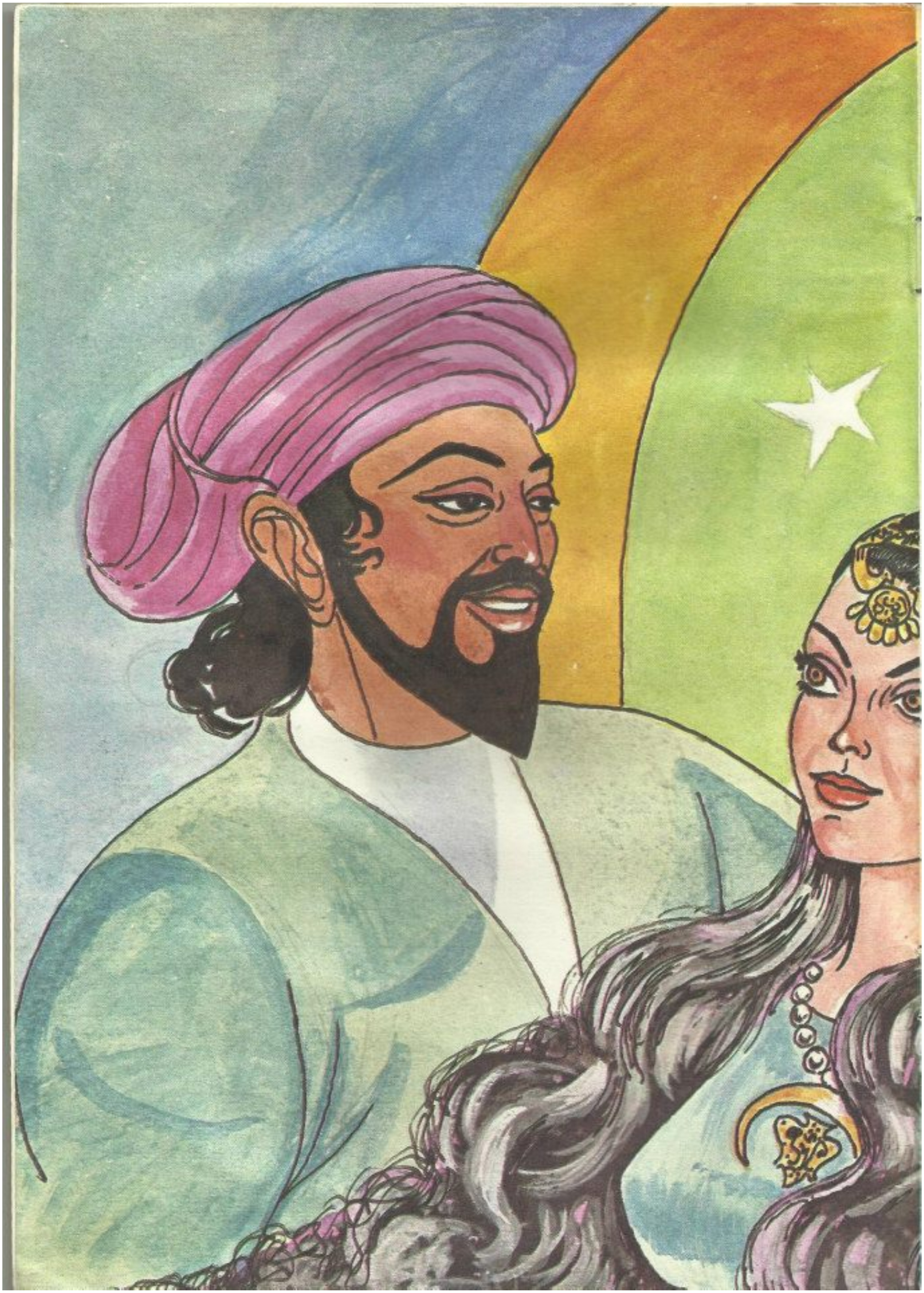
– وأنتَ يا فضلُ ماذا فعلتَ ؟

قال الفضل :

– أما أنا ، فقد خرجتُ مِنْ عندِكِ حائراً ، لا أدري ماذا أفعلُ ، فلم يكُنْ لي عملٌ أكسبُ منه لأشتريَ لكِ طعاماً .

ثم حكى الفضلُ لزوجَتِه ما جرى معه بعدَ وقوعِه في دجلةَ إلى أن قالَ :

– وجدتُ أنَّ خلاصي من هَمّي لا يكونُ إلا بالعملِ . فعمِلْتُ ، وأخلصْتُ في عملي ، وبلغْتُ ما أصبو اليه ، وأيقنْتُ أن العملَ شرفٌ للانسانِ وشرفٌ للحياة .



الهوامش :

---

(١) الغثيان　　الاحساس بالقيء

(٢) الزلال　　من أسماء الزوارق الشراعية القديمة

(٣) هيهات　　بعد (استبعاد حدوث الشيء)

(٤) رغد　　(بفتح الغين أو سكونها) صفة للحياة الطيبة الواسعة .

(٥) رمّم　　أصلح ، وعمر ما كان متهدما منه

(٦) الوجل　　الخوف

(٧) ترجلت　　نزلت على الارض برجليها

(٨) أبهاء　　جمع بهو ، وهو الصاله

الجمهورية العراقية – وزارة الثقافة والاعلام – دائرة ثقافة الأطفال – مكتبة الطفل

الناشر: دائرة ثقافة الأطفال.. ص. ب ١٤١٧٦ بغداد

ثمن النسخة: ٥٠ فلساً عراقياً أو ما يعادلها